الطريقة عند الرحمانية

د/توفيق مزاري عبد الصمد كلية العلوم الإسلامية -جامعة الجزائر-1-

تعريف الطريقة الصوفية وتطورها

لغة: عرف لسان العرب الطريقة بأنها المذهب،[1] فنقول طريقة الرجل مذهبه، وذكر ابن الجوهري في الصحاح أن الطريقة هي السبيل.[2]

اصطلاحا: الطريقة عند الصوفية هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله، من قطع المنازل والترقي في المقامات، بمعنى السير إلى الله سيرا حقيقيا معنويا لتزكية النفس والجوارح عن منكرات الأخلاق والأعمال.

فهي إذن المناهج والمدارس لتربية النفس وإرشادها، الناتجة عن التجارب والخبرات في تزكية النفس. فكما حفظ علماء الفقه والاجتهاد حدود الشريعة باستنباط الأدلة لاستخراج الأحكام. فكذلك حفظ علماء التصوف العارفون آداب الشريعة وروحها، فاستنبطوا أدابا ومناهج لتربية المريدين وتهذيب السالكين.[3]

والطريقة في المنطق الصوفي هي مذهب أخلاقي ومدرسة سلوكية، تهدف إلى تنمية القوى الروحية والسيطرة على النفس وميولها الذاتية وتصفية الباطن، من أجل

---

(1) جمال الدين بن منظور (توفي سنة 711هـ): لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1968، ج10، ص 221 –مادة طرق-

(2) اسماعيل بن حمادة الجوهري (توفي 393هـ): الصحاح، دار العلم للملايين، ط4 1990 ج4، ص 513 – مادة طرق.

(3) عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، مكتبة العرفان، حلب ط 1995، ص 477.

تصحيح وتقويم سلوك المسلم وترشيده إلى كيفية التقرب إلى الله، بحسب ما جاء في القرآن الكريم وسنة نبيه المطهرة.[1]

فالطريقة هي ثمرة التصوف الذي عرفه المجتمع الإسلامي حسب ما تذكر المصادر المتخصصة إلى أواخر المائة الثانية للهجرة. حيث بدأ في شكل حركة زهدية منذ القرن الأول للهجرة، هي نتاج اعتكاف السالكين هذا الطريق على تلاوة القرآن والتدبر فيه، باعتباره يضم عددا كبيرا من الآيات الداعية إلى الزهد والتصوف والاتعاظ بسيرة النبي وأقواله في الزهد.[2] ومنها قوله تعالى:"من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نوته منها وما له في الآخرة من نصيب" الشورى، الآية 20 ومن أحاديث النبي -ﷺ- الداعية إلى الزهد قوله: "من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فانطلق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام".[3]

ولكن سرعان ما انتقلت حركة الزهد هذه إلى التصوف نتيجة عوامل متعددة ظهرت في حياة المسلمين والتي يمكن أن نجملها فيما يلي:

- ظهور البدع في المعتقدات، غذتها المعتزلة والرافضة والخوارج كل يدعي الزهد في الدنيا، في حين اندفع الفقهاء إلى الاهتمام بأحكام المعاملات والعبادات[4] فتطور فقه الظاهر وكثرت العناية به.

---

(1) راجع قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1974، ج2 ص 649

(2) الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7هـ/ 12و13م، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة ، الجزائر، ط 2004، ص 36.

(3) انظر أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج4 ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1986، ص 235

(4) ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر بيروت، ط1 2003، ص 462.

- كان التصوف رد فعل على الحياة المادية التي طغت على المجتمع الإسلامي في مرحلته المدنية، فاهتم الناس بالكسب والامتلاك وحياة الترف وغفلوا عن أعمال القلوب، وهو ما جعل هؤلاء الزهاد من أهل السنة والمهتمين بأعمال القلوب المقتدين بالسلف الصالح ظاهرا وباطنا يعتزلون الدنيا وينفردون بالتأمل في النصوص.

- التصوف ظاهرة مشتركة بين الأديان والفلسفات والحضارات،(1) فلا يستبعد أن يكون من إفرازات الحضارات المعاصرة للحضارة الإسلامية، ولاسيما الرهبنة المسيحية.

تطور الطريقة

في القرون **الثلاثة الأولى للهجرة** لم تكن الطرق الصوفية واضحة المعالم، فكان التصوف المعروف **بالتصوف السني** هو الأكثر انتشارا، وكان يعتمد على التوجيه والنصح إلى أقرب المسالك للتخلية والتصفية لنيل القرب من الله تعالى، وقد أطلق على هذه المرحلة من التصوف -**مجاهدة النفس**- وتلخصت وجهته في مظهرين، مظهر بارز يمثل ترك مباهج الدنيا من مال وجاه وعيشة رغدة، ومظهر باطني تمثل في مراقبة أفعال القلب الذي هو مصدر الفعال ومبدؤها، وغرضها النجاة من عقاب الله.(2)

وقد مثل هذا التصوف السني "أبو عبد الله الحارث المحاسبي فنجده يقول": "واعلم أن أنجى طريق العبد: العمل بالعلم، والتحرز بالخوف، والغنى بالله عز

(1) شاخت وبوزورث: تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس وآخرون، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ج2 عدد 12 الكويت رمضان 1408/ 1988، ص 88.

(2) ابن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل، نشر الأب أغناطيوس عبده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، بدون تاريخ، ص 34 وما بعدها.

وجل، فاشتغل بإصلاح حالك، وافتقر إلى ربك، وتنزه عن الشبهات وأقلل حوائجك إلى الناس، وأحب لهم ما تحب لنفسك واكره لهم مثل ذلك، ولا تحدثن نفسك بخطيئة، ولا تصرن على صغيرة، وافزع إلى الله عند كل فاقة، وتوكل عليه في كل أمر، واعتزل الهوى، وأدم لله شكرك، وأكثر من الاستغفار.."[1] فهذه التوجيهات التربوية والأخلاقية هي التي ميزت صورة الطريقة في هذه الحقبة.

ومنذ القرن الرابع للهجرة/10م حدث أن تجمعت حلقات من الأفراد حول كبار رجال التصوف يلتمسون التوجيه والمعرفة وأصبحت كل جماعة من هؤلاء مشهورة باتباع تعاليم هذا الشيخ أو ذاك.[2] فبعد أن ضعفت النفوس وغلبت الأهواء ازداد **دور المرشد الموجه** لعلاج العلل النفسية للمريد وفي ذلك يقول الغزالي: ".. فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ أو أستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه، قاده الشيطان إلى طرقه لامحالة" ذلك لأن الشيخ حسبه "بمثابة الطبيب المعالج لأمراض النفوس، وضرورته من ضرورة طبيب الأبدان، ومهمته تكمن في تقدير جرعة العلاج، وضبط وصفات دواء النفس، وتوجيهها لطرق الخلاص من رعونتها".[3]

وبالنتيجة فإن طرق طب القلوب المستوحاة من الكتاب والسنة هي أساس قيام التنظيمات ورسومات الطرق التي اختارها هؤلاء المرشدون أو الأولياء حسب تعبير

(1) الحارث المحاسبي: رسالة المسترشدين، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط1971، ص ص 130، 131.

(2) حسين أحمد أمين: دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك في القرن العشرين، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1990، ص 88.

(3) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، عالم الكتاب، دمشق دون تاريخ، ج3، ص 20 وما بعدها.

أبي حامد الغزالي.[1] ولهذا أصبح مصطلح الطريقة يطلق على "**مراسيم تعبدية تمارسها مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين**".[2]

وأضحت أقرب إلى ظاهرة **فرقة أو حزب** لكل منها تجربته الروحية وطريقته في الإرشاد، **فمن اختلاف هؤلاء الصوفية في فهم النصوص أو بالتركيز على بعضها دون الآخر في تزكية النفس نتج الاختلاف في الرسوم التعليمية التنظيمية لها كالأوراد والأحزاب التي يرددها الأتباع**، ولكنها تتفق جميعها في بعض النقاط الهامة كالإكثار من الذكر، واحترام المرشد أو الشيخ واجتياز المريد مرحلة شاقة في الخلوة والعبادة حتى يتم الاحتفال بدخوله الطريق.[3]

ويعتبر عبد **القادر الجيلاني** أول من من نادى بالطريقة وأسسها في المائة السادسة للهجرة. وحرص أتباع الطرق الصوفية على ظاهرة **الإسناد** مثل رواة الحديث، فأتباع كل فرقة يوصلون سلسلة مرشديهم بعدة وسائط إلى رسول الله -ﷺ-

وبعد تبلور الطرق الصوفية صارت لكل واحدة شجرة نسب، تحدد أسلاف صاحب الطريقة إلى العائلة النبوية، ويبدو أن هذه الظاهرة متأخرة بعدما ضعفت الهمم واحتاج الأمر إلى سند آخر يجلب اهتمام المريدين،[4] ذلك لأن الاهتمام بالأسانيد والتدليل عليها لم يخدم المضمون التزكوي للطريقة بقدر ما كان رسما شكليا يعنى بالتنظيم الهيكلي للطريقة.

---

(1) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، عالم الكتاب، دمشق دون تاريخ، ج3، ص 20 وما بعدها.

(2) عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر- نشأتها ونظمها وروادها- دار المعارف، مصر 1983، ص 93

(3) ماجدة القاسمي الحسني: الطريقة الرحمانية أركانها وأصولها، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر 1421هـ/2000م، ص 54.

(4) راجع، دائرة المعارف الإسلامية – تعريب بطرس البستاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان دون تاريخ، مج 5، ص 272.

ولكن بمقابل ذلك نشأ عن اهتمام أهل التصوف بعلــوم المكاشــفة لمعرفــة الله واكتساب العلوم والاطلاع على حقائق الموجودات ما عرف بالتصوف الفلسفي، نتج عنه عدة نظريات صوفية[1] تباينت في كيفية الوصول إلى هذه الأهداف.[2]

مفهوم الطريقة عند الرحمانية

إذا كان هدف الطرق الصوفية هو القرب من الله عز وجل وتحقيــق العبوديــة الكاملة له، فقد تعددت الوسائل عندهم لتحقيق ذلك، فمنهم من اتخذ من العلــم والتعلم طريقه الذي يعد سلوكه إلى الله، ومنهم من جعل سيد عمله الذكر، ومــن الناس من يكون طريقه الصلاة، ومنهم من جعل طريقه الإحسان والنفع، ومنــهم من يكون طريقه الصوم، ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهي الغالــب على أوقاته، ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة الخ.. وبذلك تنوعت طــرق السير للوصول إلى قربه تعالى، بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال[3].

(1) نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: النظرية الغنوصية عند ذي النون المصري (تـ 245هـ/859م) وتهدف إلى معرفة الله بكل ما في النفس من حدس وعاطفة وخيال، ثم نظرية الفناء عند أبي يزيد البسطامي (تـ 270هـ/875م) المبنية على فناء الإنسان عن نفسه وفقدانه الشعور بذاته مع الله. ثم نظرية الحلــول والاتحاد التي تزعمها الحسين بن المنصور الحلاج (تـ 309هـ/922م) أي حلــول الــذات الإلهيــة في المخلوقات، واتحاد طبيعة الإنسان في الطبيعة الإلهية حتى تصير حقيقة واحدة. ثم نظرية الاتصــال وتجــاوز النفوس عالم الحس إلى عالم الشهادة الحقيقية عن طريق التأمل العقلي أولا ثم المجاهدة النفسية ثانية.وقد جاء بها أبو نصر محمد الفارابي (تـ 339هـ/950م). وأخير نظرية الإشرافيين، الــذين يــرى أصــحابها أن الوصول إلى حقائق الوجود يتم عن طريق النور الذي يقذفه الله في قلب عبده بعد تطهير النفس. رتــاجع طاهر بوناب: التصوف في الجزائر، ص ص 41 42.

(2) كمال مصطفى الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، مصر، ط2 1969، ص 443

(3) راجع، ابن القيم الجوزية: طريق الهجرتين وباب السعادتين، قصر الكتــاب – البليــدة- دار البيضــاء قسنطينة، بدون تاريخ، ص 189.

و لم يخرج مفهوم الطريق عند الرحمانية عن هذه المعاني. حيث اختارت الرحمانية من السير المختصة إلى الله تعالى طريقة **التهذيب والتزكية**، وهم **يقتدون بالطريقة الخلوتية**، إذ نجد مؤلفات مؤسس الطريقة الرحمانية جلها في مواضيع التصوف دون غيرها من العلوم الأخرى، وفي عمومها تأثير الأصل الخلوتي التي تعتبر الرحمانية استمرارا لها.

أما سلسلة الطريقة فيجعلونها من المقدم إلى شيخه إلى الأزهري إلى الحفناوي الخلوتي، إلى بقية السلسلة التي تصل إلى الملك جبريل عن طريق الإمام علي ومحمد-ﷺ- ويبدأ هكذا: "لقن رب العزة جبريل عليه السلام، وهو لقن النبي-ﷺ-، وهو لقن علي بن أبي طالب، إلى أن تصل إلى الحفناوي الخلوتي الذي لقن محمد بن عبد الرحمن الأزهري وتسمى أيضا الإجازة وهي تلتقي مع سلسلة الشاذلية في عدة شيوخ.[1]

ويمكن أن نجمل هذا المفهوم في جوانب نظرية ومعنوية وأخرى عملية. فأما بالنسبة للجوانب النظرية المعنوية فتتمثل في:

1- "أنها قصده تعالى **بالعلم والعمل**، بالأخذ بالتقوى وما يقربك من المولى" وأنها طلب الترقي إلى التحلي بأوصاف الكمال وصفاء الباطن، والتخلص من قبيح الفعال والتخلي عن الأوصاف الذميمة"[2]

2- تهذيب النفوس وتطهيرها من الرذائل وتحليتها بأحسن الفضائل لغرض القرب من الله تبارك وتعالى. وبذلك كان مفهوم **التخلية والتحليه** من أهم ما

(1) أبو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي، المجلد الثاني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 2005ج4 ص175.

(2) مصطفى باش تازري: المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية، المطبعة الرسمية التونسية، ط 1307هـ، ص 27 و ص22.

تقوم عليه الطريقة. ويؤكد ذلك ما ورد في تعطير الأكوان: "الطريقة أن يسعى الإنسان في تخليص نفسه من رق الهوى، وتزكيتها بالتخلية من أوصافها الذميمة والتحلية بأوصافها الحميدة، وينتقل من غفلته عن مولاه إلى الغنى به عن مشاهدة ما سواه، فيصير في زيادة مع الله تعالى، دائم التقرب منه"[(1)]

3- وأهم ما ركزت عليه الرحمانية، تتبع **أخلاق النبي** والعمل بها، فكان الأزهري يقول إذا سئل عن آداب الطريقة وأوامرها ونواهيها: "ليس للطريقة من آداب ولا أوامر، ولا نواه غير **آداب الشريعة** وأوامرها ونواهيها".[(2)] وقد عددت مصادرهم **الأوصاف الذميمة** التي يجب الابتعاد عنها:"كالجهل، الغضب، الحقد، الحسد، البخل، التعاظم، التكبر، العجب، الغرور، الرياء، حب الجاه، الرياسة، كثرة الكلام، المزاح، التزين للخلق، التفاخر والضحك، التقاطع، التهاجر، تتبع العورات، طول الأمل، الحرص، وسوء الأخلاق". أما **الأوصاف الحميدة**: "كالحلم، العلم، صفاء الباطن، الكرم، الرفق، التواضع، الصبر، الشكر، الزهد، التوكل، المحبة، الشوق، الحياء، الرضى، الإخلاص، الصدقن المراقبة، المحاسبة، التفكر، الشفقة، الرحمة للخلق، الحب في الله، التأني في الأمور، البكاء، الحزن، حب الخمول، العزلة، سلامة الصدر، قلة الكلام، الخشوع والخضوع، إنكار القلب، وحسن الخلق".[(3)]

4- تركز الرحمانية على **مجاهدة النفس** وإشباعها بالجانب الروحاني، وقد اعتبرت هذا من أهم المفاهيم في الطريقة، ومما يبين ذلك "مدار الطريق وحاصلها،

---

(1) محمد الصغير: تعطير الأكوان بنشر شذا نفحات أهل العرفان، مطبعة الثعالبية، لصاحبها أحمد بن مراد التركي، الجزائر، 1916، ص 186.

(2) محمد المكي بن عزوز: رسائل ابن عزوزن جمع وتحيق علي رضا التونسي، ط1 1984، ص 122.

(3) ماجدة القاسمي الحسني: االمرجع السابق، ص 60.

تجميل النفس، وترقية الصفات الروحانية، والتخلق بالأخلاق، وتصفية القلب"[1] لأن النفس مصدر الأوصاف المعلولة وهي التي تقف في الطريق صاحبه إلى الله تعالى.

أما وسائل الطريقة الرحمانية في علاج هذه النفس ومقاومة نوازعها:

1- **الذكر**، باعتباره الركن الركين للطريقة، وهو الوسيلة الأولى للمقاومة، جاء في المنح الربانية: "إن الشكوك وحديث النفس وهواجسها، ووسوسة الشيطان، وكل ما يخطر بالقلب من الشر وكل مالا خير فيه، فإن ذلك داء ودواؤه ذكر الله تعالى"[2] وجاء في تعطير الأكوان "اعلم أن المراد بالطريق: القرب من الله تعالى والوصول إليه، ولا يكون ذلك إلا بتمزيق الحجب التي بينك وبينه، وقد حار أهل الطريق في كيفية قطعها، فلم يجدوا سوى ذكر أسمائه"[3] ويؤكد أحدهم ذلك بقوله: "نورانية الأذكار محرقة لأوصاف العبد".[4]

2- **المرشد أو شيخ الطريق**: الذي عبرت الرحمانية عن ضرورته بالقول: "إن حال السالك في الطريق كحال المسافر في قطع مراحل الطريق المحسوسة، فكما يحتاج المسافر في سفره إلى الدليل العارف كذلك السالك لابد له من مرشد وعارف بالطريق قد سلكه وعرف خيره وشره"،"لأن مطهرة النفس من أمراضها المتعددة، تعدد مداخل الشيطان والأهواء فيها متداخلة متشعبة، يصعب حل مغاليقها وسير أغوارها، فالطريق إليها شائك وصعب يحتاج فيه إلى دليل محنك خبر

(1) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ج2 ص 732.

(2) مصطفى باش تازري: المنح الربانية، ص21.

(3) محمد الصغير: تعطير الأكوان، ص 187.

(4) ماجدة القاسمي الحسني: االمرجع السابق، ص 62.

مسالكها وعالج دروها"[1] وهم يرفعون درجة شيخ الطريق إلى مترلة الطبيب للعليل. كما ورد في قولهم: "الشيخ كالطبيب، فكما أن الطبيب يجب أن يطلع على المريض ويعلم جميع ما فيه من العلل والأمراض، ليعرف سببها وعلاجها على ما يطابق الواقع في نفس الأمر، كذلك المريد من شيخه، لا يجب أن يكتم عليه حالا من الأحوال، ليكون على بصيرة في معالجته، وتطبيبه من علل نفسه ورعونتها"[2]

ولكنهم من جهة أخرى حددوا شروطا ومعايير حتى يصل العارف إلى مرتبة المرشد ويكون له حق التوجيه والإرشاد وهي: "علم صحيح، وذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية، وبصيرة نافذة، وليس يقبل من فيه الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين ودخوله ما لا يعنيه، واتباع الهوى في كل شيىء وسوء خلق".[3]

وقد كان عبد الرحمن الأزهري المؤسس للطريقة، وأول شيخ لها يحبذ نشر مبادئ الطريقة عن طريق المراسلة وهو أسلوب تربوي يجعل توجيهاته وإرشادته التربوية تنتقل بنجاح. فيقول: "في كل زمان ومكان، كل واحد باسمه" فيقول: "تربية الدفاتر أنفع وهي التي مع أستاذي وتلاميذي".[4] وقد نجح هذا الأسلوب في جمع الكثير من التلاميذ حوله وكثر أتباعه من بر الجزائر وتونس والسودان.[5]

(1) مصطفى باش تازري: المنح الربانية، ص159.

(2) مصطفى باش تازري: المنح الربانية، ص40.

(3) ماجدة القاسمي الحسني: االمرجع السابق، ص 63.

(4) محمد عبد الرحمن الزهري: طي النفاس، زاوية الهامل نسخ 1265هـ، ص 6.

(5) أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، بيروت ط1 1982، ج2 ص 460.

والخلاصة: فإن مفهوم الطريقة عند الرحمانية هي"الرياضة والمجاهدة، على وجه السنة والمتابعة لأهلها، ودوام الذكر بإشارة شيخ مرشد"(1)

الجوانب العملية عند الطريقة الرحمانية

أولا: العهد

وبه يبدأ الدخول العملي للطريقة، والعهد في الطريقة الرحمانية هو أن "يبايع المريد المرشد، ويعاهده على السير معه في طريق التخلي عن العيوب والتحلي بالصفات الحسنة، والتحقق بركن الإحسان "ذلك" أن الطريق عبارة عن شيخ ومريد، فطبيعي أن يكون ما يربط بينها هو العهد والبيعة، فالعهد إذن هو رباط بين رجلين تحابا في الله وتعاهدا على طاعته، إنه بيعة لله وفي الله وبالله".(2)

أما كيفية العهد كما ورد في مصادر الرحمانية، هي:"أن يضع الشيخ يده اليمنى، بعد طهارة كل منهما، ويجعل راحته على راحته ويقبض إبهامه ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويستغفر الله، ويأمر المريد بذلك ويأمره بالتوبة ثم يقرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ (التحريم/أية8). ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ (الفتح/ أية 10)، وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ (النحل/الأية91) وبعد ذلك يدعو الشيخ للمريد بقوله: "اللهم افتح عنه وأحفظه، وتقبل منه وافتح عليه باب كل خير، كما فتحته على أنبيائك وأوليائك" ويقول أيضا "اللهم اقبلنا وتقبل منا وانفعنا وانفع بنا واهدنا واهد بنا، وأرشدنا وارشد بنا، وأصلحنا واصلح بنا، اللهم اقطع عنا كل

(1) راجع، محمد بن عبد الرحمن الأزهري: شرح علي الرفاوي، مخطوطة بزاوية الهامل، نسخ 1282هـ عن ماجدة القاسمي الحسني: المرجع السابق، ص 63.

(2) راجع، عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، مكتبة العرفان، حلب سوريا، ط 3 1993، ص82، وعامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص 41.

قاطع يقطعنا عنك ولا تقطعنا عنك ولا تشغلنا بغيرك" ثم يقول:" والله على ما نقول وكيل" ويقرأ سورة الفاتحة.[1]

وترى الرحمانية أن الأصل في هذه الكيفية ما ورد في قوله تعالى في بيعة الرضوان بالحديبية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح/10). وبهذه الصورة يكون العهد أشبه بالبيعة من حيث التزام الطاعة، كما ذكر ابن خلدون صورتها بقوله: "وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده، جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة، مصدر باع وصارت البيعة مصافحة الأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع، وهو المراد في الحديث في بيعة النبي-ﷺ- ليلة العقبة وعند الشجرة[2].

ثانيا: التلقين

بعد أخذ العهد من الشيخ تأتي الخطوة الثانية من خطوات الدخول العملي في الطريقة الرحمانية، وهي التلقين، ويراد به تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر نطقا وبدءا.[3] وذلك "أن يجلس بين يديه على ركبتيه، مستقبلا القبلة، بعد صلاة ركعتين وتوبة، ثم يطرق الشيخ رأسه، ويدعو سرا وهو واضع يديه على ركبتي نفسه وكذا المريد، وكل منهما غاض بصره، ويقول له اسمع مني الذكر ثلاث مرات، وقل أنت بعد ذلك، ثلاث مرات، وأنت مغمض عينيك وأنا أسمع منك"[4]

(1) وردت هذه الكيفية في مصطفى باش تازري: المنح الربانية، ص34، وفي المصدر الخلوتي، محمد منير السمنودي: تحفة السالكين ودلائل السائرين، زاوية الهامل، ص6، وعبد الرحمن الجبرتي(ت 1273هـ): تاريخ عجائب الآثارفي التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت بدون تاريخ، ج1 ص 345. وكذلك نجد هذه الكيفية في مصادر أخر بشيء من الاختلاف في اللفظ دون المعنى.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 205.

(3) عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص38.

(4) مصطفى باش تازري: المنح الربانية، ص35.

ويمنح للمريد من الأذكار بقدر حاله واستعداده وعلى ما يراه.[1] واستدل أصحاب الرحمانية على التلقين بما ورد في السنة، عندما قال علي للنبي-ﷺ- كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال:"غمض عينيك واسمع مني لا إله إلا الله ثلاث مرات، وقل أنت ثلاث مرات لا إله إلا الله، وأنا أسمع". ثم رفع رسول الله رأسه، ومدّ صوته وهو مغمض عينيه، وقال "لا إله إلا الله ثلاث مرات وعلي-رضي الله عنه- يسمع، ثم إن عليا -رضي الله عنه- رفع رأسه ومدّ صوته وهو مغمض عينيه وقال: " لا إله إلا الله ثلاث مرات والنبي-ﷺ- يسمع.

ويتعين على المريد بعد التلقين الإكثار من الذكر الذي لقنه الشيخ آناء الليل وأطراف النهار، بعدد معين من المرات مع الجد والاجتهاد في طاعة الله، وهذه من أهم الوسائل في تزكية النفس وتطهيرها من العيوب. ويعتبر التلقين عند الرحمانية بمثابة البذرة التي تغرس لتنبت فروعها. فبقدر الهمة والاستعداد تحصل التزكية.[2]

ثالثا: الوصية

وبعد التلقين يقدم الشيخ للمريد مجموع من وصايا والتزامات. وهي كلها تدور حول الأركان التي قامت عليها الرحمانية، وأهمها الوصية الجامعة لقواعد التهذيب في الرحمانية "اسمع عني وصيتي إليك واعمل بها كما ألزمت نفسك عهد الله وميثاقه، أن تتقي الله تعالى في سائر أحوالك، وتخلص في جميع أعمالك، ولا تلتفت لنظر الخلق إليك، بل غب عنهم بنظر الله لك، واطلاعه على سرك وعلانيتك، وعليك باتباع الكتاب والسنة، فإنهما الطريق الموصل إلى الله تعالى، واعمل متجردا على حظوظ نفسك في الدنيا والآخرة، ولا تعمل لملاحظة الكرامات، ولا خوفا

(1) أبو القاسم عبد الكريم القشيري (تـ465هـ): الرسالة القشيرية، مصر، ط2 1959 ص 199.

(2) المنح الربانية، ص36.

من عقاب الله، ولا طمعا في ثوابه، بل لقصد رضى الله عنك ومحبته لك، والقيام بحقوق العبودية، والثواب لاشك حاصل، وتحصيل الحاصل عبث، وعليك بالإحسان للخلق، بتوقير الكبير والرحمة للصغير، وعليك بالزهد في الدنيا إلا ما ستر العورة، أو آوى الجثة وسد الجوعة، فإن زدت على ذالك فإياك والغرور، وعليك بالورع في كل ما فيه شبهة وعليك بكف الأذى وإن أوذيت، وعليك بالصبر فإنه رأس، وعليك بالرضى على الله في كل شيء ورد عليك، وعليك بمجالسة من يدلك على الله بقوله وفعله، وعليك بكف لسانك عما لا يعنيك، وعليك بالثقة بالله على كل حال وفي كل حال، والتوكل على الله والشكر له وعليك بذكر الموت فإنه أساس الزهد، وإياك والخصومة والمجادلة والمماراة وإن كنت محقا، والبغي وحب الشهرة بالخير والميل إلى المدح، والتزام الأدب مع كل مخلوق، ولا تيأس من رحمة الله وفرجه وإن ضاقت الأمور، فإن الله يقول:﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الانشراح/ 5-6) ولن يغلب عسر يسرين إلخ...(1)

رابعا: الورد

وهو من لوازم الطريقة الرحمانية، ويراد به الوظيفة من ذكر أو قراءة، يلتزم بها المريد كوسيلة لتطهير نفسه وتزكيتها. ويقدمها صاحب الطريقة في إجازة منه لأحد التلاميذ. يذكر أولا لا إله إلا الله خاصة، أولا من عصر الجمعة إلى عصر يوم الخميس، ثم يترك لا إله إلا الله، ويبدله بالصلاة الشاذلية وهي: اللهم صل وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه، ثمانين مرة، ثم يترك صلاة الأمي

---

(1) راجع الوصية كاملة في، المنح الربانية، ص ص 39 40، وتعريف الخلف برجال السلفن ج2 ص ص 467 468، وعند محمد الصغير: تعطير الأكوان بنشر شذا نفحات أهل العرفان، المطبعة الثعالبية، الجزائر1916، ص 145.

أيضا ويبدلها بلا إله إلا الله من عصر يوم الجمعة إلى عصر يوم الخميس وهكذا دائما طوال العمر".[1] طاهرا أم غير طاهر، وقد أدخلت الطريقة الرحمانية سبعة من أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، وهي: الله هو الحق والحي والقيوم والعلاّم والقهار.[2]

لذلك يجتمع أتباع الرحمانية في زواياهم ويرددون الذكر ويطبقون وصية الشيخ الأزهري، فيجتمعون من عصر الخميس إلى عصر الجمعة، ويذكرون بأصوات عالية، ويمكنهم الدخول والخروج بشرط أن يبقى جماعة منهم تواصل الذكر والأدعية والصلوات. وهناك زوايا ينقسم فيها الإخوان إلى أفواج حسب ساعات منتظمة لمواصلة الذكر.[3]

يضاف إلى ذلك **الإجازة** في الشريعة عند الرحمانية، لأن الشيخ الأزهري لم يكتف بتأسيس الطريقة والزاوية وإنما بث المعارف وفقه التوحيد والتفسير واللغة، لذلك أصبح التعليم عندهم جزءا هاما من مهمات المقدمين الذين كانوا عادة من بين المتعلمين، وتشهد إجازاتهم على أنهم يعملون بالعلم الظاهري أو الشريعة بالإضافة إلى العلم الباطني أو الحقيقة والطريقة، ولهذا نشأت معاهد ومدارس في ظل الزوايا الرحمانية ومكتبات وحلقات درس في وقت قل فيه العلم خلال العهد الاستعماري، وهذا ما يمكن اعتباره نوعا من المقاومة الثقافية والحضارية التي قامت بها الرحمانية ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

---

(1) تعريف الخلف برجال السلف، ج2 ص461.

(2) أبو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4 ص174.

(3) أبو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4 ص176.

خلاصة

نستنتج من دراسة مفهوم الطريقة الرحمانية بأنها كانت بمثابة تنظيم صوفي له قواعده وأسسه، فاستطاعت أن تجمع حولها الكثير من الأتباع والمريدين والمتعاطفين، ولاسيما في منطقة الشرق الجزائر والجنوب الشرقي ومناطق واسعة في تونس، وهذا ما جعلها تلعب دورا هاما في فترة من تاريخ الجزائر، فكانت المحرك الأساسي لأهم المقاومات الشعبية خلال القرن التاسع عشر ولا غرابة في ذلك بعدما عرفنا ما اتسمت به الطريقة الرحمانية من تنظيم يجعلها أحيانا تعبئ تلكالشحنات الروحية الباطنية في شكل ثورات شعبية، مثلت حلقات أساسية في تاريخ الجزائر في هذه الفترة.